"مركز الحوار" في واشنطن يناقش أسباب العنف في المجتمع ..

المفكر والأديب اليمني الأستاذ القاسم الوزير:

العنف ظاهرة رافقت الإنسان منذ وُجد، ولم يقتصر على مجتمع دون آخر أو أمّة دون أخرى

*****

استضاف "مركز الحوار العربي" في واشنطن، في ندوته الأسبوعية، المفكر والأديب اليمني الأستاذ القاسم الوزير ليفتتح ندوة نقاش بين روّاد مركز الحوار حول "أسباب العنف في المجتمع". وكان ممّا ورد في كلمة الأستاذ الوزير بهذه المناسبة:

"الموضوع الذي اختاره "مركز الحوار" للمناقشة هذه الأمسية هو "أسباب العنف في المجتمع". وهو موضوع يكتسب حساسية خاصّة في هذه الفترة التعيسة التي أصبحت فيها حتى المفاهيم وتعاريفها تخضع لمنطق القوة المتعسّف الذي يُعرّفها على هواه بمنطق القوة وحده .. مُكرِّساً -بذلك- عنفاً من نوع جديد بالغ السوء. إذ أصبح العنف -بمقتضى ذلك- ذا بعدٍ تحليلي واحد هو : البعد السياسي؛ فتعريفه أصبح سياسياً بمعنى خضوعه لأهواء السياسة وأغراضها. وهو بذلك يدور وفقاً لمصالح "القوي" الذي يحرّمه في مناطق ويحلّه في أخرى، ويمارسه هو نفسه حيث يشاء ... وإنّ هذا ليشكّل بحدّ ذاته مأساةً إنسانية وأخلاقية مروّعة!

على كلّ حال: العنف ظاهرة رافقت الإنسان منذ وُجد. ولعلّه بالغ الدلالة أن تحتلّ قصة هابيل وقابيل صفحة أولى من كتاب تاريخ العنف الطويل ..

ولقد يعجب المرء من ضخامة وبشاعة الأرقام التي تشغل صفحاتٍ طوالاً من ذلك "الكتاب" .. إذا هو ألقى عليه ولو نظرة عابرة!!

مثلاً: إذا أخذنا القرون الثلاثة الأخيرة وهي التي يُنظر إليها على أنّها قرون النهضة الأوروبية التي انتقلت فيها أوروبا من الظلام إلى النور – لاصطدمنا بأرقامٍ مروّعة "في القرن السابع عشر هلك ٣،٣ مليون إنسان في الحروب. وفي الثامن عشر ٥،٢ مليون إنسان. وفي التاسع عشر ٥،٥ مليون إنسان. وفي القرن العشرين حصدت الحرب العالمية الأولى ٩،٥ مليون إنسان، وفي الثانية ما يقرب من خمسين مليون" (المصدر: مجلة النور، نقلاً عن مجلة المعرفة).

هذا في قارّة واحدة ..

ومن الجدير بالملاحظة هنا أنّ قارّةً لم تشهد من ضروب العنف ودوراته ما شهدته القارّة الأوروبية إلا أن يكون ما شهدته الأمريكيتان، وأستراليا التي قامت -ثلاثتها- أساساً على تجاوز العنف حدوده القصوى إلى الاستئصال والإبادة. وهو نفسه ما تشهده فلسطين منذ قيام إسرائيل .. في أبشع دورةٍ للعنف في التاريخ الإنساني!

على أنّ العنف لم يقتصر على مجتمع دون آخر أو أمّة دون أخرى. إنّه ظاهرة عامّة مشتركة. ويعتبرها علماء الإنسان إحدى الغرائز التي زُوّد بها الإنسان للدفاع عن النفس. وقد عمدت الأديان جميعها على نحو متّصل على تهذيب هذه الغريزة وترشيدها وتوجيهها الوجهة الصالحة .. كما عملت الحضارة الإنسانية عملها في هذا المضمار بحيث أصبح تقدّم الإنسان – فرداً ومجتمعاً- بمدى ما يبتدعه من قوانين أو يتبع من شرائع ترتقي بالإنسان من مستوى الغرائز إلى مستوى العلاقات الإنسانية، ومن منطق العضل إلى منطق العقل، ومن حوار السيف إلى حوار الحجّة والمنطق، ومن استعباد الإنسان بالقوة إلى تحريره وترقيته بالحرية والكرامة. فبقدر ما يبتعد الإنسان عن الإكراه والعنف والقسر يُقاس مدى تحضّره ورقيّه!

في ضوء ذلك يمكن القول: إنّ العنف هو الانحراف بطبيعة الإنسان عن وجهته للتحضّر والأخلاقية إلى الانحدار به نحو الغريزة والانفلات من ضوابط الأخلاق وشرائع الأديان وسيادة القوانين ..

مستويات العنف

يتحدّد العنف إجمالاً – فيما يبدو لي- في ثلاث مستويات:

١- عنف مرفوض.

٢- وعنف مقبول أو مشروع مبرَّر.

٣- وعنف مطلوب ..

- أمّـا الأول فيمكن إجماله – اختصاراً – في كلمةٍ واحدة هي: "العدوان"، بكلّ أشكاله المختلفة على مستوى الفـرد والمجـتمع، وفي نطاق الحقوق والواجبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات كالحقوق الإنسانية ..

- أمّا الثاني فيمكن إجماله في حقّ الدفاع عن النفس أو الحقوق المذكورة، أو الأرض أو الوطن الخ ..

- أمّـا الثالث فيتجسّد في استخدام العنف لتحقيق العدل، وإحقاق الحق، وحفظ الأمن، وتنفيذ القانون، متمثّلةً كلّهـا في القوانين مضبوطة به ومحدّدة له .. (وهذا هو الذي يمنح "حقّ" العنف للدولة أو السلطة في تلك الحدود).

أسباب العنف

ولا ريـب بأنّ ثمّة أسباباً عدّة للعنف في المجتمع، أسباباً تنتمي إلى فروع عدّة من فروع المعرفة، والعلم، كعلم النفس وعلم الاجتماع والسياسة وغير ذلك ..

ولقد يكون من المفيد –تأطيراً لمجال النقاش– أن نتلمّس ذلك في حقولٍ أو مجالاتٍ ثلاث:
- في مستوى حضارة
- في مجال ثقافة
- في نطاق عقيدة ..

فعلـى المستوى الأول: نجد العنف في المجتمعات البدائية غيره – دوافع غايات– في المجتمعات المتقدمة، حيث يـتفوّق فـي الأولـى منطق الغرائز، وفوضى العلاقات الاجتماعية وتختلط فيها عوامل العدوان بعوامل الثأر، والحاجات والأهداف العبثية .. (كما نرى فيما يجري في الكثير من مناطق أفريقيا).

أمّـا المـثال علـى المجال الثاني، فقد يكون الأقرب هو: الثقافة الماركسية–اللينينيّة–الستالينيّة والماوية حيث قسّـمت هذه الثقافة المجتمع والشعب إلى مع .. وضد. وجرّدت بمقتضى ذلك أعداء الشعب من كلّ حقٍّ إنساني أو ضمان .. ومـن ثـمّ أصـبح مـن المقبول إخضاعهم لفنونٍ من العسف والعنف والقتل تجاوزت الملايين –كما حصل في قضية الفلاحـين مـثلاً– مبـرّرة بثقافة خاطئة ولكنّها فاعلة .. وليس ذلك هو المثل الوحيد طبعاً .. إذ يمكن أن تساق الثقافة النازية، وثقافة الاستبداد ذلك المساق .. والمراد هنا هو التمثيل بهدف التوضيح!

أمّا النطاق الثالث: فحدِّث ولا حرج؛ لأنّ فطرة الإنسان على التديّن جعلت من استثارة هذه الفطرة .. واستغلالها أنجـع وأسرع الوسائل لممارسة عنفٍ مناقض لطبيعة الدين ولكنّه مبرّر به بفعل التأويل المنحرف إستغلالاً لفعالية الدين أو بفعـل التعصّـب الذي يعرّفه مؤذن النهضة الإمام جمال الدين الأفغاني بأنّه "إساءة استعمال الدين والخروج عن سنّة الأنبياء مؤسسي الأديان" (د. محمد عمارة. جمال الدين الأفغاني. صفحة ٢٠).
والأمثلة على ذلك لا تحصى؛ فحروب الكاثوليك ضدّ البروتستانت غير مجهولة ..
والحروب الصليبية معروفة ..
وما يجري الآن داخل المجتمعات العربية والإسلامية باسم الإسلام واضح الدلالة.
وتاريخياً .. هناك مثال "الخوارج" الذي ما برح يتناسل ..

على أنّ المثل الأبرز والأوضح الذي يتضمّن الأسباب والمستويات الثلاثة مجتمعة هو: إسرائيل.
فالإبـادة والتهجير، والتدمير، وإحراق الأرض، والاستهانة بقيمة الإنسان غير الإسرائيلي هي من صلب العقيدة التوراتية المحرّفة..
واسـتخدام العنف إلى أقصى مداه، وفي أقسى صورة، في صلب الثقافة الصهيونية وموروثها .. وواقع عملها في الواقع ..
والانفـلات من ضوابط الشرائع، والقوانين المرعية، والقيم الأخلاقية، ومقتضيات الحضارة والتحضّر، ذلك كلّه سـمة بـارزة تضـع إسرائيل من هذه الزاوية في أدنى مستويات البدائية الهمجية والانحطاط الإنساني والأخلاقي، ولكن مدجّجـة بأحـدث وأرقى وسائل التكنولوجيا المتقدمة التي تزيد في همجيتها ووحشيتها، من الوجهة الإنسانية الأخلاقية الحضارية!

دعونا أخيراً نتطوّف في حوارنا، هذه الأمسية المباركة، حول مصادر العنف وأسبابه في أيّ مجتمع:

- فحـــين تتضمّن أي ثقافة عنصراً من عناصر الاستعلاء –العرق خاصّة– فإنّه يجرّ إلى إهدار قيمة الآخر .. وبهذا تكون قد تضمّنت كلّ سببٍ من أسباب العنف .. والعنف المضاد..
- وحـــين يشـــتعل وقود الغلوّ في أي عقيدة، ينجم التطرّف، والتطرّف يلد التعصّب، والتعصّب إساءة استعمال للدين .. يؤدّي إلى العنف .. بفعله وردّ فعله.
- وحيث يكون ظلم، ويكون قهر، ويكون حرمان، وتكون مصادرة لحرّيات الناس وحقوقهم .. حين يكون ذلك أو ما أشبه .. يكون عنف بالضرورة .. وهذه معادلة لم يكذبها التاريخ مرّة ..
- ولنا الآن أن نرى العنف داخل المجتمعات العربية والإسلامية فنرى أسبابها –بوضوح– كامنة في الاستبداد والظلم، وانعدام الحريات، والكبت سياسياً، والقهر والحرمان وسوء توزيع الثروة اجتماعياً ..
- ولكـــن حـــين ننظر إلى العنف داخل المجتمعات العربية مثلاً، فإنّنا نعثر على أسبابه في عناصر من عناصر ثقافتها، وفي انحلال المنظومة الأخلاقية واهتراء العلاقات الاجتماعية تحت وطأة المادية القاسية!

هذا الفارق هو الذي يجعل العنف في الحالة الأولى تمرّدات وانفجارات عشوائية وانتفاضات موجّهة أساساً ضـــدّ الأنظمة .. ويجعل العنف في الحالة الثانية جرائم فردية مرعبة، موجّهة أساساً ضدّ المجتمع أو ضدّ القيم السائدة فيه..

ويبقى البعد السياسي للعنف هو الذي يعبّر عن منطق القوة وحده الذي يطبع المرحلة بطابعه المشؤوم، بيد أنّ ندوتنا هي حول العنف في المجتمع ..

تتأكد أهمية تجربة "مركز الحوار العربي" وفوائدها العديدة من خلال تشجيع أسلوب الحوار بين العرب من جهة وبين العرب والمجتمع الأميركي من جهة أخرى، وذلك عبر أنشطة (باللغتين العربية والإنجليزية) تشمل مطبوعات دورية وموقع هام على الإنترنت، إضافة إلى ندوات أسبوعية بلغ عددها ٥٠٤ ندوة حتى نهاية العام ٢٠٠٢، شملت ميادين الفكر والثقافة والسياسة والعلاقات العربية الأميركية.

لمزيد من المعلومات عن "مركز الحوار العربي" في واشنطن:
http://www.alhewar.com

AL-HEWAR CENTER

MAILING ADDRESS: P.O. Box 2104, Vienna, Virginia 22180 - U.S.A.
Telephone: (703) 281-6277 Fax1: (703) 281-0528 Fax2: (775) 854-9846
E-mail: alhewar@alhewar.com